

هذه لكم العلامة

من الشائع لدى السائرين على طريق الخلاص والمصارعين في حلبة الجهاد الروحي أن يتحيروا متسائلين بين الحين والآخر: هل أنا سائر في الطريق الصحيح المؤدي إلى الخلاص؟ وربما يكون الدافع الكامن وراء هذا التساؤل هو قول السيد المسيح الذي يرن باستمرار في آذانهم: "ليس كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَارَبُّ، يَارَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: يَارَبُّ، يَارَبُّ! أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَبَبْنَا، وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ، وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ فَحِينَئِذٍ أَصْرَحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الْإِثْمِ!" (مت 7: 21-23). إنه حقاً لأمر مرعب أن يظل الإنسان سائراً في طريق ظاناً أنه الطريق الصحيح حتى يصل إلى نهايته ليفاجأ، كما العذارى الجاهلات، بالحقيقة المرة وهي أنه سلك طريقاً خاطئاً لا يوصله إلى وجهته. وهو إذ يراجع نفسه يتعجب إذ يجد أن العلامات التي استرشد بها على الطريق ظاناً أنها علامات لا تخيب هي ذاتها العلامات التي تسببت في تيهانه وضلاله. فيا للعجب أن تصير علامات التنبؤ، وإخراج الشياطين، وصنع القوت الكثرة علامات كاذبة خادعة. فأية علامة، يا ترى، هي الأقوى والأصدق والجديرة بالإتباع؟

هوذا الملاك الذي بشر الرعاة بميلاد المسيح يقول لهم: "أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمْ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلَّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. وَهَذِهِ لَكُمْ الْعَلَامَةُ: تَجِدُونَ طِفْلاً مُقْمَطاً مُضْجَعاً فِي مِذْوَدٍ" (لو 2: 11-12). وبقوله هذا، وضع الملاك قاعدة روحية ثابتة وهي أن العلامة الوحيدة الصحيحة الأكيدة الدالة على تحقق الخلاص هي "طفل، مقمط، مضجع في مذود". ترى، ما عسى أن تكون تلك العلامة التي ينبغي على المجاهد الروحي أن يعثر عليها حتى يتحقق من خلاصه؟

1) **طفل:** آدم وحواء خُلِقَا كَبَالِغِينَ ولم يعبرا على مرحلة الطفولة. أما السيد المسيح، الذي هو خلاصنا، عندما تجسد اختار أن يتجسد كطفل وليس كإنسان بالغ. فيبدو أن مجرد التجسد لم يكن علامة كافية على إخلاء الابن لذاته، لكنه اختار لنفسه إخلاءً فوق إخلاء بأن يتجسد كطفل يحتاج للرعاية مع أنه راعي الرعاة، طفل لا يعرف الكلام مع أنه كلمة الله، طفل تحتويه الأحضان بينما هو الذي يتكئ في حضنه الآتون من المشارق ومن المغرب.

2) **مقمط:** القمط هو قطعة من القماش يلف بها الطفل حديث الولادة حول وسطه كدعامة لعموده الفقري الضعيف. ولعل قمط السيد المسيح يذكرنا بالمنشفة التي ائتزر بها عندما انحنى ليغسل أرجل

تلاميذه. وهو يذكرنا أيضاً بالأكفان التي لُف بها جسده عند موته ودفنه. القمط، والمنشفة، والأكفان تشترك جميعها في كونها رمزاً للتواضع النابع عن إخلاء الذات.

3) **مضجع في مذود:** وكلمة مضجع تختلف عن كلمة مضطجع. فمضجع هي اسم مفعول يدل على استسلامه لآخرين يضجعونه، بينما مضطجع تدل على أنه بإرادته يضطجع. إن ذلك يذكرنا على الفور بقول السيد المسيح لبطرس: "الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: لَمَّا كُنْتَ أَكْثَرَ حَدَاثَةً كُنْتَ تُنْطِقُ ذَاتَكَ وتمشي حيثُ تشاء. ولكن متى شِخْتُ فَإِنَّكَ تُمَدُّ يَدَيْكَ وَآخِرُ يُنْطِقُكَ، وَيَحْمِلُكَ حَيْثُ لَا تَشَاءُ" (يو: 18:21). مضجع هي إذاً رمز لحياة التسليم الكامل التي تتأتى من التواضع النابع من إخلاء الذات.

هذه هي إذاً العلامات الثلاثة الدالة، بل المراحل الثلاثة، على طريق الخلاص: إخلاء الذات إخلاءً فوق إخلاء يؤدي إلى تواضع ينتهي بدوره إلى حياة التسليم الكامل. تلك العلامات هي علامات أصلية لا غش فيها إن وُجدت في إنسان صارت له ضامنة لسلامة الوصول.

أصلي إلى الله أن يعطينا جميعاً وصولاً سالماً إلى ميناء نجاتنا، وكل عام وأنتم بخير سائرين على الطريق الصحيح للخلاص.